ألف حكاية وحكاية (٨٠)

لوحة أخبار لسن الخامسة

وحكايات أخرى

تأليف
يعقوب الشارونى



رسوم
عادل البطراوى

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقى
الفجالة - القاهرة

الحياة هى المعلم الأول

فى دار حضانةٍ كبيرةٍ فى نيويورك ، وجدْتُ الأطفالَ سعداء يضحكون. وعندما بحثْتُ عن السرِّ ، أشارَتِ المشرفاتُ إلى لوحةٍ كبيرةٍ على الحائطِ ، قرأتُ عليها ما يلى:

"إذا عاشَ الطفلُ تلاحقُه الانتقاداتُ ، سيتعلَّمُ البحثَ عن أخطاءِ الآخرين. أما إذا عاشَ مُستمتِعًا بالتشجيعِ ، سيتعلَّمُ كيف يمدحُ مزايا الآخرين."



"وإذا عاشَ الطفلُ تحيط به الخصوماتُ والعداواتُ ، سيتعلَّمُ العدوانَ . أما إذا عاشَ مع التسامُحِ والتحمُّلِ ، سيتعلَّمُ الصبرَ والمرونةَ."

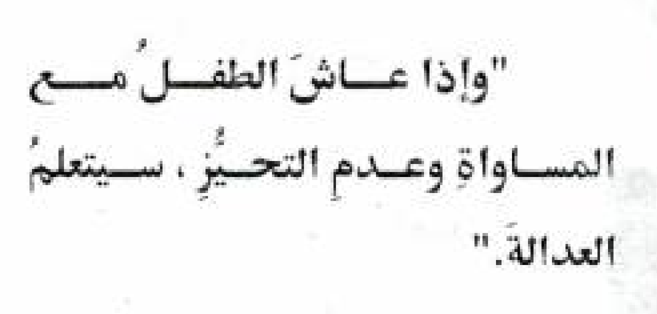


"وإذا عاشَ الطفلُ هدفًا لسخريةِ الآخرين منه ، سيتعلَّمُ الخجلَ والانطواءَ . أما إذا عاشَ مُحاطًا بالتشجيعِ ، سيتعلمُ الثقةَ بالنفسِ."



"وإذا عاشَ الطفلُ متهمًا بأنه سببٌ للخزى والعار ، سيتعلَّمُ الإحساسَ بالذنب. أما إذا عاشَ مع المدحِ واستحسانِ شخصيتِهِ وتصرفاتِهِ ، سيتعلمُ كيف يحترمُ نفسَه ويقدِّرُ ذاتَهُ. "





"وإذا عاشَ الطفلُ مع المساواةِ وعدمِ التحيُّزِ ، سيتعلمُ العدالةَ."



"وإذا عاشَ مستمتعًا بالأمانِ ، سيتعلَّمُ الثقةَ بالآخرين."



"وإذا عاشَ مع الصداقةِ واحترامِ الآخرين له ، سيتعلمُ كيف يجدُ الحبَّ فى الحياةِ."

عندئذٍ ابتسمْتُ أنا أيضًا ، وانطلقْتُ فى سعادةٍ أشاركُ الأطفالَ ألعابَهم.

لوحة أخبار لسن الخامسة

فى روضةِ أطفالٍ بنيويورك ، راقبْتُ طفلاً فى الخامسةِ من عمرِهِ ، ما إن دخلَ غرفةَ الفصلِ ، حتى اندفعَ نحوَ معلمتِهِ ، يحكى لها فى حماسٍ قائلاً: "جدِّى جاءَ أمسِ إلى بيتِنا لزيارتِنا.. لقد سافرَ إلينا بالقطار."

وفى اهتمامٍ قالَتْ له المعلمةُ: "هذا خبرٌ مهمٌ ، يمكنُ أن نكتبَهُ فى لوحةِ الأخبار."

وأمسكَتْ بقلمٍ أحمرَ ، وطلبَتْ من الطفلِ أن يُملِىَ عليها الحكايةَ كلمةً كلمةً ، وهى تكتبُ على مساحةٍ من الورقِ الأبيضِ المُعلَّقِ على أحدِ الجدرانِ.



ثم طلبَتْ من الصبيِّ أن يرسمَ رسمًا يعبِّرُ عن حكايتِهِ. وبعدَ قليلٍ، ثبَّتَتِ المُعلِّمةُ الرسمَ بجوارِ خبرِ الحكايةِ.

وعندما اكتملَ حضورُ أطفالِ الروضةِ، قالَتِ المعلمةُ لهم: "عندنا اليومَ خبرٌ جديدٌ، أبلغني به زميلكم ديفيد، وقد "كتبْناهُ" في لوحةِ الأخبارِ. هيَّا يا ديفيد، "اقرأ" لنا الخبرَ."

ووقفَ ديفيد "يحكي"، وهو يستعيدُ من ذاكرتِهِ كلماتِهِ وعباراتِهِ.

والتفتَتِ المعلِّمةُ ناحيتي وقالَتْ: "هذا تشجيعٌ للأطفالِ ليعبِّروا عن خبراتِهم بالكلماتِ والرسمِ، مع تنميةِ ثقتِهم بأنفسِهم. وهو تدريبٌ ليُعيدوا استخدامَ نفسِ الكلماتِ حتى تُصبحَ ضمنَ قاموسِهم اللغويِّ المنطوقِ. كما أن فيه تنميةً لمهاراتِ ما قبلَ القراءةِ، عندما يعتادُ الطفلُ أن يُعيدَ التعبيرَ بوضوحٍ عما سبقَ أن قرأهُ."



أمى عندما تشرح لى بهدوء !!

أنا لا أقصدُ أن أسبِّبَ "زعل" لماما ، لكننى أنسى أحيانًا بعضَ الأشياءِ. ذاتَ مرةٍ نسيتُ حنفيةَ الحوضِ مفتوحةً ، بعد أن غسلْتُ وجهى، زعقَتْ أمِّى قائلةً لى:



"أنت لا تعرفُ معنى المسئوليةِ.. دائمًا تفتحُ الحنفيةَ ثم تتركُها مفتوحةً. أنت تُريدُ أن تتسبَّبَ فى غرقِ الشقةِ كلِّها."

والحقيقةُ أننى فى معظمِ الأحيانِ أقفلُ الحنفيةَ ، وإن كنتُ أنساها فى مراتٍ قليلةٍ.

كانتْ كلماتُ أمِّى تدورُ كلُّها حول الخطأ الذى ارتكبْتُهُ ، لكنها لم تحدِّثْنى عن الصوابِ الذى يمكنُ أن أقومَ به.

ولأننى كنتُ أشعرُ بالخوفِ والاضطرابِ من طريقةِ حديثِ أمِّى ، فقد انحصرَ تفكيرى فى التصرُّفِ الذى اعتبرَتْهُ أمِّى خطأ مُتعمَّدًا منى ، فلم أستطعِ التفكيرَ فى الصوابِ الذى يجبُ أن أقومَ به!

كنتُ أنتظرُ من أمّي أن تقولَ لي: "انظرْ يا تامر .. الماءُ ملأ الحوضَ، وبعدَ قليلٍ سينزلُ إلى الأرضِ ويُغرِقُ الشقةَ."



لو أن أمّي قالَتْ لي هذه العبارةَ بهدوءٍ، لكانَ من الأسهلِ أن أناقشَ مع نفسي الخطأَ الذي ارتكبْتُهُ، وأن أهتدِيَ بنفسي إلى الصوابِ الذي يجبُ أن أقومَ به.

إن أمّي عندما تشرحُ لي الموقفَ بهدوءٍ، تجعلُني أفكّرُ فيما فعلْتُ، وفي النتائجِ التي ترتَّبَتْ على تصرُّفي، وهذا يُساعِدُني على أن أتذكَّرَ الصوابَ في المراتِ القادمةِ.



لن أكون "شاطرة" أبدًا !!

قالَتِ الخالـةُ زينب بلهجةٍ أقربَ إلى الأمرِ منها إلى الحنانِ:

"تعالَىْ يا دعاءُ اجلسى بجوارى."

وأطاعَتْها ابنةُ أختِها التى لم يكـنْ عمرُهـا يزيـدُ عـن ثـلاثِ سنواتٍ ، وتركَتْ قِطَعَ الصورةِ المُجزَّأةِ (البازل) التى كـانَتْ ترتِّبُها فى سرعةٍ ومهارةٍ.

قالَتِ الخالةُ: "هيَّا نلعبُ لعبةَ الألوانِ .. هل يمكنُ الإشارةُ إلى شيئَيْنَ لونُها أحمرُ؟"

وأشارَتْ دعاءُ إلى غطاءِ الكنبةِ البرتقالِيِّ ، وفستانِها القرمزِيِّ.

هنا ظهرَتْ تكشيرةٌ على وجهِ الخالةِ ، وصاحَتْ: "يا خديجةُ .. طفلتُك الثانيةُ هذه لا تعرفُ الألوانَ . أتذكَّرُ أن أختَها رانيا كانَتْ تميِّزُ الألوانَ وعمرُها سنتانِ . هل تعرفُ دعاءُ هذه شيئًا عنْ حروفِ الألف باء؟"

قالَتِ الأمُّ مدافعةً عن ابنتِها الصغرى: "دعاءُ عاديةٌ جدًّا. ربما لا تكونُ في مثلِ شطارةِ رانيا ، لكنَّ رانيا كانَتْ دائمًا مُتقدِّمةً عن بقيةِ الأطفالِ. أمَّا دعاءُ فتتصرَّفُ مثلَ كلِّ الذين في سنِّها."

قالَتْ دعاءُ لنفسِها وقد فقدَتْ حماسَها للعودةِ إلى قِطَعِ البازل: "أنا لن أكونَ شاطرةً أبدًا مثلَ أختي رانيا."

أما الأختُ الكبرى رانيا التي سمعَتْ كلَّ هذا الحديثِ ، فقد قالَتْ لنفسِها: "أنا أشطرُ من كلِّ الآخرينَ."

ونسيَتْ أنها لم تنجحْ ولا مرةً في ترتيبِ قطعِ "البازل" !!



هلْ تسمعنى يا بابا ؟!

كانَ الأبُ يراقبُ برنامجًا على شاشةِ التلفزيون ، عندما دخلَ ابنُهُ مروان ، وعمرُهُ خمسُ سنواتٍ ، قادمًا من مدرسةِ الروضةِ ، وتقدَّمَ إلى والدِهِ قائلاً ودموعُهُ فى عينَيْهِ: "عاطف زميلى ضربَنى .. هل تسمعُنى يا بابا ؟"



ثم أمسكَ مروان بذراعِ والدِهِ ليتأكَّدَ أنه جذبَ انتباهَهُ ، وأكمل قصتَهُ: "لذلك ضربْتُهُ أنا أيضًا .. لكنه ضربَنى ثانيةً ضربةً أشدَّ.. هل تسمعُنى يا بابا؟"

عندئذٍ قالَ الوالدُ وهو يركِّزُ سمعَهُ وبصرَهُ على شاشةِ التلفزيون: "لقد سمعْتُ كلَّ كلمةٍ.."

لكن مروان صاحَ مُحبَطًا: "لا .. أنت لم تسمعْنى ، ولن أحكِيَ شيئًا بعدَ الآن!"

وأحسَّتْ والدةُ مروان بما أصابَ ابنَها ، فاقتربَتْ منه ، وأخذَتْهُ معها بعيدًا تمامًا عن التلفزيون ، وقالَتْ له في تعاطُفٍ واهتمامٍ: "لقد اشتكَيْتَ لي مراتٍ كثيرةً من عاطف هذا .. هل عندك طريقةٌ لنستريحَ من أذاه ؟"

وفي الحالِ ، اندفعَ مروان الصغيرُ يقولُ: "هل تعرفينَ يا ماما ماذا سأفعلُ؟ سألعبُ مع حسام .. إنه لا يضربُ أحدًا !!"



هنا ابتسمَتِ الأمُّ وهي تهمسُ إلى نفسِها: "عندما أصغَيْتُ باهتمامٍ حقيقيٍّ إلى متاعبِ ابني ، استراحَ بعد أن أفرغَ كلَّ ما بنفسِهِ أمامي ، بل استطاعَ أن يجدَ بنفسِهِ الطريقَ السليمَ لحلِّ مشكلتِهِ !"

البرج ارتفع كثيراً

على مقعدٍ أمامَ مائدةِ الطعامِ الخاليةِ ، جلسَتِ الصغيرةُ التى تجاوزَ عمرُها السنواتِ الثلاثَ بشهورٍ قليلةٍ ، تبنى بالقطعِ الخشبيةِ تكوينًا كأنه البرجُ. وكم كانَتْ سعيدةً بإنجازِها ، لأن القطعَ استقرَّتْ فى مكانِها فوقَ بعضِها ، ولم تسقطْ كما كان يحدثُ عندما كانَتْ تبنيها وهى أصغرُ سنًّا.



ودخلَتِ الأمُّ الغرفةَ ، وتأهَّبَتِ الصغيرةُ أن تقـولَ لأمِّـها فـى فخرٍ: "انظرى يا ماما .. البرجُ ارتفعَ كثيرًا.."

لكنَّ الأمَّ لم تعطِ الصغيرةَ أيةَ فرصةٍ لتقولَ شيئًا ، بل صاحَتْ بها فى تأنيبٍ:

"ألم تسمعى ما قلْتُهُ لكِ منذُ قليلٍ ؟! هذا وقتُ ترتيبِ البيتِ ، وأنتِ تشغلينَ المائدةَ بألعابِكِ ؟ هيا أبعِدى كلَّ قطعِكِ الخشبيةِ هذه من هنا !!"

كانَتِ الصغيرةُ تتوقَّعُ من أمِّها أن تقولَ لها فى سعادةٍ ، بغيرِ تهديدٍ أو أوامرَ: "يالَهُ من برجٍ عالٍ ! وأنتِ طبعًا لا تريدينَ أن يقعَ ، لذلكَ من الأفضلِ أن تنقليهِ إلى غرفتِكِ ، أو تضعى القطعَ الخشبيةَ فى صندوقِها."

لكنَّ الأمَّ قالَتْ شيئًا مختلِفًا ، وبطريقةٍ مختلفةٍ ، وهى لا تدرى مقدارَ الإحباطِ الذى أثارَتْهُ كلماتُها فى نفسِ ابنتِها.

هذا أحدُ المواقفِ التى شاهدْتُها فى برنامجٍ تلفزيونيٍّ فى أمريكا ، مُخصَّصٍ لتدريبِ الآباءِ والأمهاتِ على الأساليبِ السّليمةِ للحوارِ مع الأبناءِ.



القدوة التى أمامهم !!

عندما كنتُ أقومُ بمراجعةِ أوراقِ إجابةِ امتحاناتِ طالباتى بالدراساتِ العليا بكليةِ رياضِ الأطفالِ بالإسكندريةِ ، فى مادةِ "أدب الأطفال" ، استوقفَتْنى الحكايةُ التاليةُ فى إحدى الأوراقِ ، أنقلُها هنا كما قرأتُها:

"هذه تجربةٌ شخصيةٌ حدثَتْ لى ، وقد كنتُ أعملُ مدرسةً للتربيةِ الرياضيةِ لبناتِ المرحلةِ الإعداديةِ ، وكنا فى شهرِ رمضانِ ، وموعدُ حِصَّتى لطالباتِ الفرقةِ الثالثةِ فى وقتٍ تشتدُّ فيه حرارةُ الشمسِ ، لذلك طلبَتْ منى الطالباتُ أن أتركَ لهن الحريةَ فى التحرُّكِ فى الملعبِ دون تقيُّدٍ بلعبةٍ معينةٍ."



"وعندما استجبْتُ لهن ، فوجئْتُ بأن اللعبةَ التى اختارَتْها البناتُ ، بدأت بأن خلعَتْ كلٌّ منهن ربطةَ العنقِ الخاصةَ بها ، وربطَتْها على عينَيْها ، ثم قُمْنَ بتمثيلِ شخصياتِ "النينجا" بكلِّ ما فيها من عنفٍ."

ثم تكتبُ طالبةُ الدراساتِ العليا قائلةً: "وإذا كان هذا هو الحالَ بالنسبةِ إلى البناتِ وفى هذه السنِّ ، فماذا يكونُ الحالُ بالنسبة إلى الأولادِ، خاصةً فى السنِّ الصغيرةِ ، عندما يجدونَ مثلَ هذه القدوةِ هى الموجودةَ أمامَهم ؟!"

ثم تضيفُ: "وقد بدأت بعضُ مصانع لعبِ الأطفالِ فى تصنيعِ سيوفٍ من البلاستكِ للأطفالِ ، تُباعُ فى كلِّ مكانٍ ، بل ويطلبُها حتى الأطفالُ الذين يتميزونَ بالهدوءِ نسبيًّا ، ليمارسوا فيما بينهم ألعابَ العنفِ."

وليس هناك ما نضيفُهُ إلى هذه الشهادةِ الواقعيةِ ، بكلِّ ما فيها من مرارةٍ وعتابٍ.



لأنها لا تعرف موهبته الحقيقية

ذهبَتِ الصحفيةُ الشابةُ إلى مدرسةِ الروضةِ ، واختارَتْ صبيًا عمرُهُ أربعُ سنواتٍ ، لتلتقطَ له صورةً تنشرُها مع موضوعٍ كتبَتْهُ عن أساليبِ معاملةِ الكبارِ للأطفالِ.

قالَتِ المعلمةُ وهي تُشيرُ إلى الصبيِّ: "من الطبيعيِّ أن تختاريه ، فهو جذَّابُ الشكلِ جدًا ، لكنه متأخرٌ كثيرًا عن بقيةِ الأطفالِ. إنه يحبُّ التلوينَ ، لكنَّ خطوطَهُ ليست إلا مُجرَّدَ شخبطةٍ وليسَتْ رسومًا."

قالَتْ الصحفيةُ: "لابد أنه سيتقدَّمُ بمضيِّ الوقتِ."

فأضافَتِ المعلمةُ والصغيرُ لا يزالُ بينهما ، كأنه تمثالٌ من الرخامِ لا يسمعُ ولا يفهمُ: "المفروضُ أن يحدثَ هذا ، لكنني لا أظنُّ أن هذا الولدَ سوف يتحسَّنُ أبدًا."

ونظرَ الصبيُّ إلى قلمِهِ الملوَّنَ الذي في يدِهِ ، ثم رماهُ على الأرضِ. وجلسَ وحدَهُ بقيةَ اليومِ ، يهزُّ رأسَهُ كلما طلبَ منه أصدقاؤه أن يلعبَ معهم.

وعندما قالَ لأمِّه إنه لا يُريدُ الذهابَ بعدَ اليومِ إلى المدرسةِ ، تصوَّرَتْ أنه قد تَشاجَرَ مع طفلٍ آخرَ ، لكنها لم تلاحظْ أنه أصبحَ لا يستخدمُ أقلامَ الألوانِ التي كانَ يُحِبُّها ، وأنه أصبحَ صامتًا بعد أن كانَ يملأُ البيتَ بضحكاتِهِ وبالموسيقى التي كانَ يعزفُها بمهارةٍ على "الأورج" الصغيرِ !!.